مورافيا وفلسفة «السأم»

بقلم نيقولا شيارومونت

لنستمع الى مورافيا يتحدث في « السأم » (١) ،عن السأم ، هذه الموضوعة الثابتة في آثاره ، والتي تبدو هنا للمرة الاولى بطريقه صريحة جليه :

« ... السأم بالنسبة لي ، ليس عكس التسلية ، بل يمكنني القول انه في بعض مظاهره ، يشبه التسليه بما يخلفه من شرود ونسيان ينتميان طبعا الى فئة خاصة جدا . ان السأم في نظري هو حقا نوع من النقص او عدم التلاؤم او غياب حس الواقع . واعمد هنا الى تشبيه فاقول: ان حس الواقع ، حين يتملكني السأم ، يحدث لدي مايحدثه بالنسبه للنائم غطاء قصير اكثر مما ينبغي ، في ليلة شتوية : فاذا سحبه على قدميه ، اصيب بالبرد في صدره ، واذا رفعه الى صدره ، اصيب بالبرد في قدميه ، فهو لهذا لا يستطيع ابدا ان ينام قرير العين ، او هذا التشبيه الاخر: ان سأمي يشبه انقطاع المجرى الكهربائي في بيت : فكل شيء منير واضح ، في لحظة من اللحظات ، هنا الكراسي وهناك الارائك ، وهنالك الخزائن والمناضد واللوحات والبسط والطنافس والنوافذ والابواب ، وفي اللحظة التالية لايكون ثمة بعد الا ظلام وفراغ ، او هذا التشبيه الثالث :ان بالامكان تعريف سأمي بانه مرض للاشياء ، او عبارة عن ذبول او فقدان للحرية مفاجئين تقريبا ، فالامر كانما هو رؤية زهرة تتحول في بضع لحظات ، من التفتح الى الذبول الى التفتت ...

« ... كنت في نظر نفسي شبيها بشخص لايحتمل لاسباب مختلفة ، يجده مسافر في حافلته عند بدء رحلة طويلة ، والحافلة هي من تلك الحافلات المصنوعة على الطراز القديم ، من غير اتصال مع الحافلات الاخرى ، والمفروض في القطار الا يتوقف قبل نهاية الرحلة ، وعلى هذا فان المسافر مضطر الى البقاء مع رفيقه الكريه حتى اخر المطاف ...

« ... وكان المظهر الرئيسي للسأم هو العجز العملي عن ان اظل تجاه نفسي التي هي من جهة اخرى الشخص الوحيد في العالم الذي لم اكن استطيع بحال من الاحوال ان اتحلل منه . »

اننا نتعرف هنا الى الحالة النفسية التي كانت تسمى، في اولى روايات مورافيا ، باللامبالاة . ولكن اللامبالاة كانت تخص بالاحرى الاخرين ، لا الواقع بصورة عامة . كانت هي العجز ، لدى احد الشبان ، عن ان يشارك الاخرين العواطف والمشاعر والرغبات التي كانت تمنحهم اسبابا للعمل ان لم تكن مشروعة ومقبولة ، فهي على الاقل واضحة ومباشرة ، وكان هذا العجز يرافق حزنا كبيرا وشعورا بالذنب مرهقا بقدر ماهو مجرد من اي سبب ظاهر ، اما سأم بطل « السأم » فهو ، اذا شئنا ، اللامبالاة التي تنبسط فتشمل الواقع كله ، الاشياء واحدا واحدا ، والاشياء مجموعة ، ابتداء من الشيء الاشد استغراقا ، وهو الذات، وانتهاء بالشيء الاشد تجريدا والاكثر وجودا في كل مكان، وهو العالم الذي يفرض فيه ان تنظم الاشياء والمخاوقات ويوضح بعضها بعضا ، ولكنها على العكس لاتفعل الا ان تعكس عبثية واستحالة متكاثرتين الى مالا نهاية .

لقد تحدثنا عن « الحالة النفسية » ، ولكن السأم اذا فهم على هذا النحو لايمكن ان يكون حالة نفسية ، كما يقال عن النفور او عن المرح بانهما حالتان نفسيتان . وبالفعل ، فان السأم المورافي انما يعرف بانه غياب كل حالة نفسية خاصة وانتفاؤها ، وهو يستبعد كذلك الحزن والفرح ، بل هو يبلغ ، كما يشير المؤلف ، الى ان يقتل ذلك السأم الاخر الذي هو الشعور بزمن فارغ لا لون له ، وغياب التسلية والفرص المحركة . ومن جهه اخرى يمكن التحدث عن الحالة النفسية بصدد مزاج ما او وضع روحي مرتبطين بسبب او بدافع عرضيين ، ومعتبرين بالتالي عابرين من الفرد الى اللحظة نفسها التي يعاني منها « او يستمتع بها» او يمكن التحدث في اخر المطاف عن مزاج غير معلل ، ومن

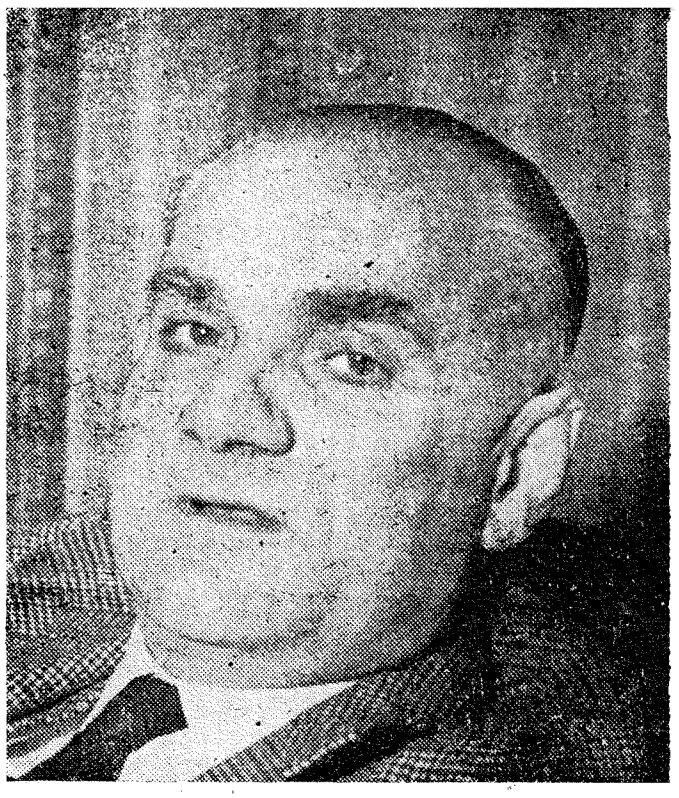

(١) صدرت اخيرا عن دار الاداب مترجمة الى العربية في سلسلة « الجوائز العالمية »

ثم ، اكثر تغيرا وعرضية ، وبالاضافة الى ذلك ، فان الحالة النفسية ، لكونها بالاساس عابرة ، تبدو كواقع ذاتي محض، تشويه للأنا ، لا للعالم الواقعي .

اما السأم المورافي ، فان له ، على عكس ذلك ، خاصية ان يكون وضعا داخليا ، مستمرا وغير معال في الوقت نفسه ، ليس مقصورا على ان يهدم كل امكانيه باستشعار حالات نفسيه ، بل هو يعدي العالم الخارجي ، ويجعله مجدبا وناقصا ، لا بسبب هذه القالة او تلك ، بل ككتلة ، وبصورة نهائية ، اذا صح التعبير .

***

وهنا يتم الانتقال من « الفيزيك » « ومن السيكولوجية الطبيعية » الى « الميتافيزيك » ، اي الى حقل تحل فيه محل مراقبة الوقائع المزعومة قضية انفصام العلاقة بين الفرد والاشياء ، حقل يحل فيه محل صورة العالم الذي هو مكان ومصدر الاعراض التي تتفاوت حظا والما وتفردا ، الاحساس بثقل العالم نفسه وكثافته وبثقل وجودنا بالذات في قلب هذا العالم . ان العالم واحداثه تظهر كتجربة « لا ــ معنى » مكرورة ، ويبدو وجودنا بالذات كواقع جامد اصم نعذب نفسنا لادراكه وفهمه ، وربما لم يكن هناك ، في اخر المطاف ، مايفهم ، ولكننا لانستطيع الامتناع مع ذلك عن تعذيب انفسنا .

وسأم مورافيا هو وضع التعذيب هذا ، تعذيب لاشك في انه لاجدوى منه ، ولكنه مع ذلك ضار وكشاف في ضراوته . انه وضع يلزم الفكر كله ، لا الحساسية وحدها، ولا ملكة المحاكمة بكل تأكيد ، لان الحساسية اذا لم تتح ادراك نقص العالم بالنسبة للوعي ، ونقص الوعي بالنسبة للعالم ، فان العقل كذلك يفقد هذه القدرة ، هو الذي لايعطينا الا النظام المنطقي للاحداث . ولما لم يكن السأم المورافي مجرد حالة نفسية ، ولا عمل محاكمة عقلية ، ولا نتيجة خاصة لسبب خاص ، فينبغي ان نتفق على انه وضع الكائن مرتبط بوضع ما للعالم .

وضع الكائن : نقصد بذلك وضعا يكون فيه الشخص مسكونا كليا وبصورة دائمة بشعور ما ، وبفكرة طاغية ما ، ومن جهة اخرى ، بسبب انه مغمور كليا ومملوك لهذا الشعور ، فانه يحول الى الا يصبح الا محض وعي فارغ الذات ، وهو على نحو ما قسر للوعي ، وعي لا جدوى منه مادام لا يستطيع شيئا ضد الاحساس المهووس الذي يشغله والذي يحيل الوجود المحسوس الى آليات . وهذه الحقيقة التي تنطبق على شعور الحواس ، او على رغبة التملك ،اشد انطباقا على شعور سلبي مهووس كالسأم الذي لاتكون اعراض الوجود بالنسبة اليه الا الدليل المتكرر للاجدوى نفسها ، والا انتفاء المعنى .

***

في الدراسة التي كتبها هايدغر بعنوان « ما هي الميتافيزيقا ؟ » ، يشرح المؤلف في معرض حديثه عن السأم بالذات فكرة تنطبق انطباقا فريدا على هذا الوضع . فالتجربة البدائية الاولى التي نحفظها عن العالم ، هي في رأي هايدغر ، هذه التفاهة اليومية التي تبدو فيها الاشياء حاضرة جنبا الى جنب ، الواحد خلف الاخر ، وكلها معا ، من غير ان تقدم لنا اي تبرير عام عن حضورها . والعالم الذي هو موضوع هذه التجربة يبدو واضحا بينما هو كثيف ، ويبدو وكأنه يشكل كلا ، بينما هو لايفعل الا ان يقدم لنا مجموعة من الاشياء والاحداث ، ويبدو وكأن له معنى بينما هو يردنا ببلادة الى نفسه والى الاشياء التي تؤلفه . ذلك هو السأم الميتافيزيقي الذي يقرب ، على حد قول هايدغر ، بين البشر والاشياء ، يقرب بيننا بصحبة الاخرين وبين الاشياء في لا تمييز يحمل على الذعر . وتحت هذا الشكل يتبدى لنا الكائن اول مايتبدى ، اي من حيث ان الوجود وضع كلي لاينحل على صعيد اليومي والناجز مسبقا وانما يستوجب تدخل الحرية الانسانية .

واذا اعطينا فكرة هايدغر قيمة الاستعارة او الاسطورة امكننا القول على نحو ما بان آثار مورافيا كلها تولد وتنمو ابتداء من تقرير قبول السأم كأمر واقع : فهي تقف عند السأم وتمتنع على اي تكشف لاحق ، ولهذا فهي تقتصر على القول وعلى الترديد بان عالم اليومي الرتيب ، العالم الطبيعي او العادي الذي يكتفي به معظم الناس ، معتبرين اياه الحقيقة الواقعية القصوى ، هو بكل تأكيد الواقع الوحيد ، ونحن لانعرف واقعا غيره ، ولكنه يضيف انه عالم مضجر ، عالم ميت بكل مافي الكلمة من معنى ، اي انه عالم بعيد عن ان يضعك في اتصال مع واقع الاشياء ، بل هو يمنعك من ان يكون لك أي صلة بها .

وروايات مورافيا وقصصه ليست حكايات ذات نزعة طبيعية ، حتى ولا واقعية ، وانما هي قصص هذا العالم الميت : نماذج مكرورة عن واقع لا هوادة فيه لعالم ميت ، عالم يكون فيه الوعي مستيقظا وجامدا في وقت واحد . والواقعية المورافية ، بهذا المعنى ، اخلاقية محض ، فهي لاتصف الاشياء ، والاحداث ، وانما تصف تأثيرها السلبي على الوعي والشعور ،او بالاحرى سلبيتها العنيدة ،والطريقة التي يرفضها بها الوعي ويبعدها بشدة زينونية . ذلك انه اذا كان العالم ميتا ، واذا كانت الاعمال والاشياء التي تؤلفه جامدة ، فان الوعي الذي يصفها هو ، بالمقابل ، حي وذكي : انه يكابدها من غير ان يقبلها ، ويؤكد ، وهو يصفها طاقته الذاتية وصلابته في وقت واحد . ومن اجل هذا ، فان قصص مورافيا ــ وهي وقائع يومية لوضع سأم ولا معنى ــ حين تكون ناجحة « وهي ناجحة لاسيما وانها تنزع اكثر فاكثر لان تكون نموذجية ، وانها بدلا من ان تضيع في حبكة معقدة ، تتركز على واقعة بسيطة » فانها ليست متشائمة وليست محطة : بل على العكس ، هي اقرب لان تكون مشجعة وعفوية ، بالرغم من طبيعتها الكريهة او المغيظة . انها مقوية للوعي والروح ، لا للحواس ، لانها مصنوعة لكي تفهم ، لا لكي تتذوق . ولكونها تقرأ كقصص طبيعية او واقعية « ومن سوء الحظ ان المؤلف يعطيها غالبا هذا الشكل » فانها بالضرورة تثير الكره والغيظ ، والواقع انها مكتوبة بنية قاسية لان تضرب وتصفع جمودا خلقيا ما ، وشهوانية حسية ما ، وعاطفية ما ، وجمالية ما ، ونضيف انها تقصد الى مناقضة نزعة تقليدية ايطالية تميز بها ادب منبسط ، متلون ، مزين .

وتقتصر واقعية مورافيا على اعطائنا صورة الاصطدام المتكرر الاهوس بين الوعي وتفاهة الوقائع . انه اصطدام رتيب ، دقيق في ذاته ، بلا تطهير ، والحق ان مايصوره مورافيا بدقة وبلا ضجر ، انما هو قصور الواقع « الغطاء القصير اكثر مما ينبغي » ولذلك نراه يقدم لنا منذ البدء ، كل مرة ، وبتحيز لا سبيل الى تفاديه ، واقع الوعي ، دودة الوعي القارضة المعذبة ، القاسية قسوة لا هوادة فيها ، ولهذا كان كل كتاب من كتبه قبل كل شيء تجربة حقيقية ،وليس اسطورة خرافية . صحيح ان هناك عشرات من الكتاب

القادرين على أن يصوروا المظاهر الحساسة تصويرا افضل واجمل واوضح من تصوير مورافيا لها ، ولكن ليس ثمة من هو أقدر منه ولا ابرع على التقاط اللحظات التي تمزق فيها الحقيقة الواقعة ضباب النزعات والتمنيات ، فتنتفض بالحياة وتتكشف عن جوهرها الذاتي الساحق . انها تلك اللحظات التي نشعر فيها بثقة انسان مضى بتجربته الخاصة حتى نهايتها ، انسان يتحدث فيمضي باستقامة نحو الجوهري . اذ ذاك ينجح مورافيا على نحو ما في تجسيد جوهر عذابه بالذات ، فاذا هو يفجر من حركة ما ، من تماس جسدي ، من طرفة عين ، من جزء صفيق من مادة ما ، شعور استياء او ضيق ، او قلق جذري . ومن هنا تولد القصة ، لا من « فرحة السرد » ، والى هنا تريد ان تبلغ ، لا الى خاتمة واقعة ما ، ان الحبكة هي « الرباط الموضوعي » لهذه الحالة النفسية الدائمة ، انها منبثقة من ارادة المؤلف لان يقولها وهي مرتبطة بقرينة واقع يومي معتبر « كمكان مشترك » للتجربة ، وليست منبثقة من رغبة في تمثل مجرى فعل واقعي في ديمومة زمن واقعي .

وفي هذا الوضع الاساسي الذي يصوره مورافيا بلا انقطاع ، تبدو لي رواية « السأم » مثالا رائعا ، دقيقا ، قويا وفعالا بتجرده الخلقي والفني — ولعلها انجح آثار مورافيا .

***

ان بطل الرواية رسام تجريدي يأخذه يوما وحي حقيقي اثر محاولات كثيرة مخفقة ، فينقض على لوحة يرسمها ويمزقها بضربات مديته . وبعد ذلك يشعر بانه حر في ان يبدأ كل شيء من جديد ، انطلاقا من الصفر ، او في ان يعترف بصراحة انه فاشل : « فاشل لا لاني لم اكن احسن رسم لوحات تروق الاخرين ، ولكن لاني كنت اشعر بان لوحاتي لم تكن تتيح لي ان اعبر عن رأيي ، اقصد انها لم تكن تعطيني الوهم بانه كانت لي بالاشياء علاقة . »

هذا اذن رجل ازاء حقيقة كريهة الى ابعد حد ، ولكنها تظل رغم كل شيء افضل من الوهم : فهو لكونه وجيدا ازاء صورة لنفسه « لاتحتمل لاسباب مختلفة » في عالم منحط ، يستطيع ان يفعل او ينساق لفعل أي شيء . وذات يوم ، تفلت منه حركة باتجاه فتاة صبية :

« واذ وصلت الى ماتحت بابي الزجاجي رأيتها ترفع عينيها نحوي ، ولكن من غير ان تبتسم هذه المرة . ورفعت يدي لانزع السيكارة من فمي ، ولكني بدل ذلك اومأت لها ايماءة واضحة ان تعود ادراجها . » وعلى هذا النحو ، وقعت الاحداث ، وهكذا يتفق ان يجد الانسان نفسه ماخوذا في دوامة الواقع ، على مايعني المؤلف .

من هذه الحركة اللاارادية ، المجانية والضرورية معا ، تنبثق قصة ، ليست هي قصة حب وغرام ، وانما هي قصة ارادة المعرفة والتملك محرومة ، تشكل نواة الحكاية . ان العلاقة بين الرسام والفتاة عارية ، آلية ، نظيفة كعظمة ، بل حتى كهيكل عظمي ، سلسلة من الافعال الجسدية ذات آليه مسعورة ومثلوجه ، ولم يسبق لكاتب ان صور العري والشهوة واطفاء الشهوة بمثل ما صورها به مورافيا من انتفاء للانبساط ، ومن موضوعيه عديمة الاحساس ، ذلك ان مورافيا لايصف الاجساد ولا حركاتها ، وانما يصور طبيعتها القائمة على البدهية واللاواقع في وقت واحد : انه يصور الرفض الذي تواجه به هذه البدهية واللاواقع ملكه الفهم ، ويصور آلية الاجسام وقدريتها العمياء . وفي فراغ السأم ، يقدم انتصار الحب الجسدي على كل دافع حيوي اخر في عنف مدمر شبيه بالعنف الذي نجده في نفوش « بيز » مطالبا بانتصار الموت والتحلل على الانانية والمسرات الارضية :

« لقد كان « اي الحب الجسدي » في البدء شيئا طبيعيا جدا بما ظهر لي من ان الطبيعة كانت تتجاوز نفسها فيه وتصبح انسانية ، بل اكثر من انسانية . اما الان فيلفت نظري افتقاره الى الطبيعة ، وخصيصته كعمل مخالف للطبيعة على نحو ما ، اي انه اصطناعي ولا معقول . ان السير والجلوس والتمدد والصعود والهبوط ، جميع هذه الالوان من العمل الجسدي كانت تبدو لي ذات ضرورة ، فهي اذن طبيعية ، اما الاقتران فقد كان يبدو لي على العكس قسرا شاذا لم يصنع الجسم الانساني من اجله ولا يستطيع ان يعتاده من غير جهد وتعب . وكنت افكر بان كل شيء يمكن ان يعمل بيسر ، في انسجام ولذة . كل شيء ماعدا الاقتران . ان بنية الجهازين التناسليين بالذات ، جهاز المرأة الصعب المنال ، وجهاز الرجل العاجز ، كالذراع او كالساق ، عن التوجه نحو غايته بطريقة ذاتية ، والمحتاج على العكس الى مساعدة الجسم كله ، ان بنية هذين الجهازين كانت تبدو لي وهي تدل على لا معقولية الفعل الجنسي ... »

ان مورافيا لا يقول ان هذا هو الحب ، وانما يقول ان اظهار الحب على غير هذا النحو ، في الوضع الذي نحن فيه ، يعني الكذب ، ومن جهة اخرى ، فان الجنس ، على كونه مجردا كل التجرد من اية ذرة روحية ، يظل مع ذلك حقيقة ، يظل المدخل الوحيد الى الطبيعة الذي مانزال نحتفظ به ، ان عبارة « لنكن المادة » التي ينطق بها بطل فلوبير ، القديس انطوان ، تعبر عن الشكل الوحيد للعذاب الصوفي الذي هو جدير بالانسان المعاصر ، ان الجحيم الحقيقي ليس هنا ، وانما هو في « اللاضروري » ، في كل مايهربنا من نفوسنا بان يخفي عنا واقع اننا نعيش في عالم ميت اخلاقيا . وهذا الواقع يصوره مورافيا في ضراوة لايضاهيه فيها احد ، في اجزاء الرواية التي تربنا العلاقات بين البطل وأمه . هناك تصوير للبذخ والمال وفراغ الاحاديث وصمم الروح لدى كائن يحب التملك وشراهة التملك في هوس مميت : الرضى الجامد عن الذات . فمن الامكنة التي تشبه مقصورة الام ينتشر روح السأم على العالم .

ترجمة « الاداب »

صدر حديثا :

الطبعة الثانية من ديوان

قصائد عربية

للشاعر سليمان العيسى

دار الاداب — بيروت